أشباحك .. ها أنت تذهب إليهم

(كلمات لذكرى يوسف إدريس)

كانت قصته «طبلية من السماء» هي نقطة اللقاء الأولى بيني وبين يوسف إدريس . حين فرغت من قراءتها أذكر أنّني قلتُ في سرّي : «قرد هو هذا الكاتب» .

ومنذ ذلك الحين ازددت شغفا بأعمال هذا الكاتب العملاق ، القرد ، العفريت ، الملاك ، الشيطان .

وحين قرأت مجموعته «بيت من لحم» خاطبت الدكتور يوسف إدريس ، وهو على بُعد مئات الكيلومترات ، في مكان ما من مصر «المجهولة» :

– أنتَ كاتب عظيم يا رجل . أنت كاتب عالمي .

وكانت زيارتي الأولى في مصر ، وكان يوسف إدريس من معالمها الشاهقة التي سعدتُ بمعانقتها .

لحظات ، واتّضح أنّنا صديقان حميمان من قبل أن نلتقي . وصار طبيعيّا أن نلتقي يوميّا . ويكون معنا محمود درويش حينا ، ويوسف القعيد ونبيه القاسم حينا ، وهذا الكاتب أو تلك الفنانة .. في المقهى ، في الفندق وفي المسرح . ثمّ في السينما مساء دعانا لمشاهدة الفيلم المأخوذ عن رواية له والذي يُشارك في بطولته صديقنا نور الشريف ويحيى الفخراني وآخرون .

ويبدو لي الآن أنّنا عاملناه وكأنّه الأصغر سنّا بيننا ، لا لسبب إلا لأنّنا أحببناه وأحببنا «طفولته» وأسعدنا أنْ «نُدلّله» ونُساير مزاجه الوديع – الحاد ، المرح – القاسي ، الشرير ، في آن .

كان أكبر منّي سنّا ، فقط في البرنامج الإذاعي « في صالون يوسف إدريس » حيث استضافني قرابة الساعة فكان مضيفا رائعا ، بأبوّته الرصينة ، على الغالب ، المائلة إلى الشقاوة بعض الشيء .

وحزنتُ يوم صادفناه ، زوجتي وأنا ، في مدخل أحد الفنادق ، فسألناه عن سبب تغيّبه عن أسبوع الثقافة الفلسطينيّة في القاهرة ، فاذا به يُجيب كسيرا :

- لم يدعوني .. لم يدعني أحد .. وإلاّ فهل كنت أتأخّر عنكم ؟

وكان طبيعيّا ألاّ نتأخّر نحن عنه ، فنلتقي من جديد ويعود إلى مرحه وظرفه وقسوته وإبداعه .

لم يكن الأدب ، والكتابة القصصيّة بشكل خاص ، مجرّد «شغل» ، عند يوسف إدريس . كانت الحالة الإبداعيّة مزاجا يوميّا يضع هذا الكاتب العظيم على الحدّ الفاصل بين العبقريّة والجنون ، تُطارده شخوص خياليّة وتتداخل في حديثه العادي حتى تكاد تتحوّل إلى نماذج حقيقيّة من لحم ودم .

وعلى سبيل المثال فقد روى في أحد لقاءاتنا الأخيرة في القاهرة «حادثة» وقعت له في الإسكندرية ، قال:

« إشتريت منزلا في الإسكندرية أذهب إليه للاصطياف وللكتابة . وتبيّن لي فيما بعد أنّ عددا من العمال الذين بنوا المنزل قتلوا في أثناء عملية البناء ودفنوا تحته . وذات يوم لاحظت أشباحا ترتدي القمصان البيضاء تتجوّل في المنزل وتُثير شيئا من الضجيج . ولم تكن تلك سوى أشباح أولئك العمال المدفونين تحت المصطبة .

وتصاعدت عمليّة الإزعاج يوما بعد يوم ، فاضطررت مرّة للصراخ على الأشباح حتى يدَعوني وشأني ، لمتابعة الكتابة بهدوء ، وهرع

على صراخي بعض أفراد الأسرة . وحين رويتُ لهم ما حدث ظنّوا أنّني جننتُ ، ولم يصدّقوني . لذلك قرّرتُ التفاهم مع الأشباح حتى لا أتصادم مع أفراد أسرتي . وبالفعل ، ذات مساء دخل غرفتي قميص أبيض فرحّبت به وقلت له بهدوء : إسمع أيّها الأخ الشبح ، أنا مُتعاطف معكم ، ولا أطلب منكم مغادرة المنزل . كلّ ما أطلبه هو أن تُتيحوا لي قدرا كافيا من الهدوء حتى أنجز ما يجبُ عليّ انجازه من أعمال كتابيّة مرتبطة مع الصحف والمخرجين السينمائيين وغيرهم .

وكان الشبح مؤدّبا للغاية ، فقد غادر الغرفة دون أن يقول شيئا . ويبدو أنّه اتّفق مع زملائه على عدم ازعاجي ، وهكذا تمكّنت من إنهاء العمل في موعده المُحدّد ».

تبادل الجُلوس نظرات الدهشة . ولم تندّ عن أيّ منهم أيّة ملاحظة أو كلمة أو نأمة . وخيّل إليّ كأنّ اتّفاقا سريّا تمّ بين الجلوس (الأشباح) على عدم تعكير صفو صديقنا الكبير الدكتور يوسف إدريس ، وبعد أن هممتُ بالقول : «إنّها قصة جميلة .. متى ستكتبها» كبحتُ لساني . لم أشأ أن يعتبر ملاحظة كهذه ضربا من السخرية . لقد بدا الرجل جادّا في كلّ ما يقول ، فهو يروي واقعة ، ولا يقترح مشروع قصّة .

اليوم ، وبعد رحيل صديقي الكبير الدكتور يوسف إدريس ، وبعد انضمامه إلى أشباح «واقعته» في المنزل الإسكندراني ، أسمح لنفسي بقولها من أعماق القلب المحبّ :

أشباحك .. ها أنتَ تذهب إليهم .. رافقتك السلامة أيّها الأخ الحبيب ، أيّها الكاتب العظيم والإنسان الرائع » ! .

«الاتحاد» ١٩٩١/٨/٩